الضاحكون الباكون في «مطر آخر الليل» للسواحري

■ سليم النجار

الخيوط التي ينسج منها خليل السواحري قصصه في مجموعته «مطر آخر الليل» تنتهي إلى رسم «جغرافيا سرية» للمدينة ولتحت- أرضها. تبدأ تناسلها جميعاً من مناخ الهامشيين أو من عالم المسكوت عنه. يبدأ الحكي بتلقائية توهمنا أنه يحكي واقعة من «الوقائع المختلفة شاهدها في الطريق، أو المطار، وأعاد صياغتها. لكن هذا التوهم سرعان ما يبدده سطوع كلمات مفاجئة وعبارات مكثفة محملة بالإيحاءات والدلالات، تنقلنا إلى مشهد قصصي تؤطره وتوحد تلك الخيوط المتناثرة في مختلف القصص. قوام هذا العالم عند خليل السواحري، الهامشيون أو المنفيون «مقابل المستوطنين كما يحلو له أن يقسم الناس»، الذين صنفتهم المؤسسة الاجتماعية في تراتبيتها الهرمية لتجعل منهم نقيضاً للمواطنين «العاديين» الأساسيين.. هم أذن من يضرب بهم المثل عن الهاربين من أوطانهم، واللاشجاعة، والموت الذي يُدفع بالذكرى.. ولا يمكن لمجتمع أن يتصور نفسه بدونهم، لأنه إذا كان من الصعب تشخيص «الفضلاء» وممثلي الأستقامة بكثرة، فإن من السهل تكثير المنحرفين وتهميشهم لاستعمالهم كنماذج لا تحتذي وكسلوك يُزجر عنه ويعاقب عليه..

التلقائية التي يتحدث بها خليل السواحري، تلازمه وهو يسمي الأشياء المكونة للاهتمامات اليومية عند أشخاصه الهامشيين. ويكون الوطن في طليعة تلك الاهتمامات. إن الثنائية الفاصلة بين الأشياء تنعدم في سلوكياتهم، والجسد كلي، به يواجهون العالم ومنه يستوحون ردود الفعل.. والمنفي

يختلط بما هو مسكوت عنه، وباحث عن آمان.. بالوجود العدم. في قصة «ذات صباح.. ذات مساء» يجسد خليل السواحري العلاقة الغريبة بين العاديين العقلاء والباحثين عن وطن آخر غير وطنهم. «هل يبيع أحد وطنه أو بقايا وطنه؟» ص٥٢.

المنفيون أيضاً لا يفهمهم العقلاء مع أنهم ليسوا دائماً حمقى، إلاّ أنهم يربكون عالم السياسة المصنوع من الضوضاء والكلام المجاني وافتعال المشاعر والأفكار، بدلا من ذلك يقترح المنفيون الصمت والحلم وإطلاق سراح الحمائم!

تظل العلاقة بين الكتابة والذات والواقع المعيش، حزمة من التساؤلات المتشابكة كثيراً ما تفضي بنا إلى متاهة مسدودة..

وفي مجموعة خليل السواحري القصصية «مطر آخر الليل» تبدو العلاقة بين هذه العناصر الثلاثة ملتبسة وتهتز فعالية الكتابة إزاء حضور الذات- المنفى- وإزاء انعكاسات الواقع على حيوات الناس.

هل يرجع ذلك إلى أن الكتابة ليست كل شيء في حياة خليل السواحري، وإنما هي وسيلة مكملة للتعبير عن الوجود بما هو موجود؟ أم يعود ذلك إلى المنطلق الذي ينطلق منه: استحياء عالم الهامشيين وكأنه عالم منغلق على ذاته، وجد منذ الأزل ويمتد إلى الأبد غارقا في صراعاته وهلوساته وبؤسه المادي والمعنوي؟ ما يزكي هذا الأنطباع الأخير في نفس قاريء قصص «مطر آخر الليل» هو غياب المحور الأخير، محور الفئات «الأساسية» في علاقاتها الجدلية مع الهامشيين. من ثم انعدام ردود الفعل «الواعية» عند هؤلاء الأخيرين. ففي قصة «سيدة أثينا» الكاتب يخشى من ضجيج الشعارات وتكرارية التبشير، إلا أن هذا العزل يحجب عن العالم القصصي لخليل السواحري أشعة الوعي التغييري عبر جميع طبقات المجتمع العربي.. وحين يبتعد السواحري عن رصد عالمه الخاص-ويطل على العالم-المجتمع، وتتخذ قصة «سيدة أثينا» صورة الواقع، في محاولة معانقة كابوس الحرمان، إلا أن تجربة الهامشي تظل محفورة في أعماق بطل «سيدة أثينا» عندما يتفوه بالعبارات التالية:

«كان يراقبها بنظرات خاطفة، يلاحظ شرودها ويحاذر في الوقت نفسه أن يقطع عليها هذا الأنهماك في مراقبة الأبنية والشوارع والأضواء ومداخل الكازينوهات ذوات الفوانيس الكابية بأضوائها الحمراء والزرقاء» ص٤٢-٤٣.

الإحساس بأسبقية الأشياء في قصص خليل السواحري يطرح المسألة المألوفة في المناقشات النقدية حول علاقة الكلمات بالأشياء أو مدى قدرتها على التعبير عما هو حي ومدرك من خلال الذات. ومسألة عجز الكلمات المزمنة.. لكن حل هذه المشكلة عن طريق الأقرار بحجز الكلمات عن تجسيد الأشياء والتجارب والعلائق، يبقى حلا سهلا يلغي ضمنياً جدوى الكتابة وضرورتها.. أو يفتح الأبواب أمام كل طارق بدون تمييز.

نحس في المجموعة القصصية «مطر آخر الليل» لخليل السواحري، أنه يطيل المسافة بينه وبين المكان من تكثيفه داخل النص، ومن خلال المباشرة،

وتحميله صيغاً سياسية، لكن هذا المجهود في الكتابة لا يتأسّس على مراجعة نقدية لأشياء الواقع المعيش فتظل القصص مشدودة إلى المكان كعنصر محايد. وهنا نتساءل.. هل لنا أن نطرح اقتراحنا الأن.. هل المكان مناسب؟!

والوقت أيضاً؟

أن نأتي بـ «الأخر» إلى قصصنا، أن نأتي بكلامه ووعيه وفكرته؟

وهل علينا أن نبرر ذلك بمقدمة عن واقعنا المأزوم والمأساوي، لنقع في كمائن المكان في وعي القاريء أو في قصص مكانية محايدة، حذرة منتقاة.

ثمة خيط غامض من الخوف كان يجعل من محاولة معرفة «الآخر» تجاوزاً للرغبة في نفيه من خلال رغبة منزوعة في تأكيد حضوره الديمقراطي في حياتنا ما بعد الخروج-أو الهروب-من الوطن. ليتحول المنفى إلى الحلم.

صحيح أن المنفى تغيّر هو أيضاً، أو يجب أن يكون كذلك، خرج من إطار الدهشة-دهشته بالأخر- وهبط من جدار الخوف ليتلمس الأشياء ويتحدث عنها. لا أن يبقى خطابه يحمل سمات الدهشة والدلالات والترميز، التي تفضي للإبهار.

لعل هنالك من يقول، إنها المعرفة المرة، إذا جاز لنا التعبير، التي علينا أن نقترب منها، وأن نبصرها جيداً من مختلف زواياها.

خليل السواحري في «مطر آخر الليل» كان أسير المكان من حيث المشابهة أو الانتقاء، ولديه رغبة في أن نتشبه بـ «الأخر» أو أن نلتقط قسراً ما يشبهنا في خطابه، وفي هذه المحاولة عزز السواحري، حقيقة المنفى وواقعيته. وحقيقة الوطن الذي كان ووضوحه في الغياب.